التعزية الحسينية في ايران

● الدكتور امين عبد المجيد بدوي

«مصر»

استمدت التعزية الحسينية عناصرها من الأحداث التي وقعت عام ٦١هـ/ ٦٨٠م بالطف أي كربلاء ومهدت لها البيعة بولاية العهد ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثم توليه الخلافة سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م .

وقد أطال الطبري وابن الأثير في حولياتهما وابو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين وصف وقائع هذه المأساة وما حفلت به فصولها من خطب وأشعار وكلمات بليغة وروايات وأخبار تصور تقديس المسلمين ومحبتهم لآل البيت عامة والحسين خاصة كما تعبر أقوى تعبير عن إغراء المال والسلطان وضعف الطبيعة البشرية أمام إغرائهما .

بَغَّضَ مقتل الحسين على هذه الصورة يزيد والأمويين الى عامة المسلمين وزاد في بغض الشيعة لهم ، فأجمعوا أمرهم الشتيت على الثأر له ، وغدت دماؤه الزكية مدداً غزيراً لمراثي لا تحصى ، وتألفت من شيعته فرقة تعرف بالتوابين تُجرى دموعها الندم على ما فرطوا في جنب الحسين ، ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦٥هـ/سنة ٦٨٤م ، انهم ساروا حتى انتهوا الى قبر الحسين ، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة ، فما رأى أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه ، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه .

فكانت هذه أول تعزية عامة أقامها الشيعة في ذكرى الحسين .

* * *

والتعزية ـ المواساة بوجه عام ومشهد الشيعة بوجه خاص ـ وأول معانيها عندهم النواح على من استشهد من الأئمة عند قبورهم أو في منازل النائحين ، وهم يندبون الحسين خاصة .

والتعزية في لغة العامة ، التابوت المصنوع على غرار القبر القائم في كربلاء ، وهم يحتفظون في بيوتهم بنماذج من هذا التابوت يتخذها أثرياؤهم من النفائس . على أن التعزية تدل بوجه خاص على المشهد نفسه ، ويقام هذا المشهد في الثُلث الأول من المحرم وخاصة في اليوم العاشر منه ، وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين ويعرف عند المسلمين بعاشوراء ، ويسمى عند شيعة ايران «روزقتل» أي يوم القتل .

وتختلف المشاهد اختلافاً كبيراً باختلاف البلدان ، فهي في ايران غيرها في مواطن الشيعة من أرض الجزيرة وبلاد الهند[1] .

ويعتقد الشيعة ان جبريل قد أخبر الأنبياء الأوائل ومحمداً نفسه بتفصيل ما وقع وبخاصة مقتل الحسين ، كما رؤيت هذه الوقائع في الأحلام وتنبىء بها وحكيت مراراً وتكراراً ويعترف يعقوب ويوسف ان الحسين وأولاده قاسوا أكثر مما قاسيا ، بل ان حواء وراحيل

ومريم قد أحسن بلوعة أمه فاطمة ، وخير محمداً بين ولده الصغير ابراهيم وبين الحسين فرضى بموت ابراهيم وادخر الحسين ليفدي به الناس .

وتسود التعزية فكرة الفداء ، وتتضح بجلاء في قول جبريل للنبي : (ولسوف يخر سبطاك صرعى عدو زنيم ولن يكون هذا جزاء عصيانهما أوامر ربهما ، فما تعلق أو ضار الإثم بواحد من أهل بيتك يا خير البرية ، وإنما يفتديان المسلمين فيتلألأ جبيناهما أبد الآبدين بنور الأبرار المصطفين ، فإن شئت أن يغفر الله ذنوب الآثمين فلا تضنن بزهرتي بستانك أن تقطفا قبل الأوان)[٢] .

وفكرة الفداء قديمة في الأديان ، ففي الميثولوجيا اليونانية ، يقدم أجاممنون قبل الإبحار الى طروادة ابنته «ايفيجيني» قرباناً لآلهة اليونان كنبوءة العرافين ، فتأتي الإلهة «أرتميس» وتخطفها وتضع مكانها وعلاً أنثى[٣] . وفي التوراة يبتلى ابراهيم بأن يطلب اليه ذبح ابنه الوحيد اسحق بأرض المريا ، فلما امتثل ما أمر به وأخذ السكين ليذبح ابنه ، ناداه ملاك الرب من السماء فقال : (لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني ، فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيّه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه)[٤] ووردت هذه القصة كذلك بالقرآن في سورة الصافات : (فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم)[٥] وفي السيرة النبوية قصة افتداء عبد الله بن عبد المطلب بالإبل وكان ذلك في جاهلية العرب .

أما افتداء الناس والتكفير عن خطاياهم بدم الانسان فنراه بجلاء في قصة السيد المسيح بالعهد الجديد من الكتاب المقدس : جاء في الإصحاح السادس والعشرين من انجيل متى (وبينما يأكلون ، أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدي ، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا) وتنبأ السيد المسيح أيضاً في مطلع هذا الإصحاح بما دبروا له : (ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه : تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الانسان يسلم ويُصلب) .

وقد مر بنا كذلك في رواية ابن الأثير على لسان الحسين يتنبأ فيها بخاتمة حياته .

مراسم التعزية في ايران

يبدأ الايرانيون مراسم التعزية في مقتل الحسين مع شهر المحرم وتستمر حتى نهاية صفر فتتشح البلاد بأثواب الحداد وتعطل الملاهي ، إلا أن أشدّ أيام التعزية وأرهبها هي العشرة الاولى من المحرم ، فتقام مجالس العزاء في كل مكان ، ويتجمع بها النسوة والرجال ، ويقوم في هذه المجالس متكلم بليغ حسن الأداء يقص مأساة الحسين وينشد المراثي في صوت حزين ولحن منغم فيغلب الناس البكاء وتجري دموعهم حسبة عند الله وقد يبكي المتكلم أيضاً فيزيد تأثيره فيهم ، ويسمى هذا الرجل (روضة

خوان)[٦] أو (روضة خون) كما في لهجة العوام ومعناها قارىء التعزية . ووجه التسمية ـ فيما يقال ـ أن أقدم وأشهر كتاب في مراثي الأئمة هو كتاب (روضة الشهداء) تأليف حسين واعظي كاشفي ، وكانت قراءته تسمى (روضه خواني) أي قراءة الروضة وقارئه يسمى (روضة خوان) ثم أطلقت التسمية على قراءة كل كتب المراثي فسمى قارئها (روضة خوان)[٧] .

فإذا كان اليوم العاشر وهو أرهب أيام الحداد ، خرجت هذه الجموع في فرق منظمة أشبه ما تكون بفرق الجنود في الاستعراض ، فتسير في الشوارع : بعضهم يضرب الصدور فيسمون (سينه زنان) وبعضهم يضرب الظهور العارية بالسلاسل ويُسمون (زنجير زنان) والبعض يشج الرؤوس بنوع من المدى يسمى (قَمِه) بفتح القاف وكسر الميم ، ويقال لهم «قمه زنان» ويسألون الله المغفرة بهذه الدماء السائلة من رؤوسهم في سبيل الحسين ، ويتقدم هذه الفرق جماعات ينشدون عبارات محزنة بنغمات رتيبة ، على وقفاتها تضرب الصدور والظهور ويردد مقاطعها القوم بعدهم ، فهم يقومون بدور النادبات في مآتمنا الشعبية ويسمون (نوحه خوان) أي النائحون .

والمشهد رهيب يملأ النفس أسى والقلب شجى والجو ضجة وعويلاً ويحس مشاهده اهتزاز الأرض تحت أقدام الآلاف المشتركة في هذه المواكب الصاخبة[٨] .

التعزية في صورتها المسرحية

تأخذ التعزية صبغة المسرحية ، وهذه المسرحية نوعان : ثابتة وسيارة ، فالاولى أعدت لها مسارح شعبية خاصة تسمى في الهند (إمام باره) وفي ايران (تَكْيَه) بفتح التاء وكسر الياء وسكون الكاف ، ولعل كلمة (تكية) في لغتنا العامية مأخوذة من هذه الكلمة .

وقد كان لكل حي بالمدن الكبيرة كما كان لكل قرية بايران (تكيه) خاصة ، والتكية بناء مسقوف أو مسدس بنيت وسطه عادة مصطبة تمثل عليها مشاهد مأساة كربلاء طوال شهري المحرم وصفر ، وتوجد كذلك في بعض البلاد تكايا غير مسقوفة مثل (تكية اردستان) .

وكانت مسرحيات التعزية «شبيه خواني» تلقى في طهران عاصمة البلاد اهتماماً كبيراً ، ولهذا أقام كل من الأعيان والأشراف (تكية) في الحي الذي يقيم به ، وكان أحسن هذه التكايا كما يقال : (تكية دولت) التي أقامتها الدولة على نفقتها وقد مثل فيها أرقى هذه المسرحيات ويليها حسب الأهمية : (تكية عضد الملك) ـ (تكية صاحب اختيار) ـ (تكية مستوفى) ـ (تكية قورخانه كهنه) ـ (تكية سنكلج) ـ (تكية درخو نكاه) ـ (تكية دباغخانه) ـ (تكية حاجي رجبعلي) ـ (تكية رضا قليخان) ـ (تكية كورها) و(تكية منوچهرخان) .

وعلاوة على هذه التكايا كانت مشاهد التعزية تقام في بعض البيوتات ومن أهمها بيت (حاجي مجد الدولة) وبيت (ميرزا أبو الحسن خان ايلچي) كما كانت تمثل أغلب الأوقات بالمقابر وصحون بعض المساجد .

وأهم ما يجهز به المسرح : تابوت كبير ومشاعل توضع في مقدمة المسرح ثم قوس الحسين ورمحه وحربته وعلمه ، والإنفاق على إقامة هذه المسارح وتجهيزها وتزويدها بالممثلين فريضة على ذوي اليسار يتقربون بها الى الله[١٠] .

ولكل من القائمين بأدوار التعزية المسرحية

تسمية خاصة وفقاً للدور الذي يقوم به :

فمن يقوم بدور الحسين أو أحد شيعته يسمى (تعزيه خوان) أو (شبيه خوان) فإن قام بدور يزيد أو شمر أو أحد أعادي الحسين يسمى (مخالف خوان) والذي يقدم للمسرحية بالخطب والأحاديث والمراثي المشجية المحزنة يسمى (پيش خوان)[١١] .

ويلتف النظارة حول المسرح في دائرة أو نصف دائرة يشهدون فصول المأساة في حزن بالغ وتأثر عميق يصعدون الزفرات ويذرفون الدموع .

وفي المنظر الأخير من المسرحية يجتمع الآباء كافة من آدم الى فاطمة حول الرأس الشريف ، ويخاطب النبي فاطمة قائلاً : (لا تثريب عليك في بكاء ولدك المقتول المضرج بدمه الزكي ، فقد غاب عنك سر هذا الاستشهاد ، وستجزين عليه يوم القيامة بمفاتيح الجنة والنار)[١٢] .

أما المسرحية السيارة فمسرحها الطريق العام ، ومن أهم مشاهدها الموكب المفجع الذي حمل الطفل عليّاً الأصغر زين العابدين ولد الحسين ، والنساء والرأس الى يزيد بن معاوية ، ومبيت الموكب بدير نصراني ونطق راهبه بالشهادتين عند رأس الحسين واستسلام أسد وتبجيله للرأس الشريف[١٣] ، وتمر المشاهد الواحد في إثر الآخر تباعاً في طرقات عينت من قبل ، ويصطف على جانبيها النظارة ، ويدرب ممثلوها على أداء أدوارهم قبل ذلك بمدة طويلة ، ويرى خير مثال لهذه المسرحية في الوقت الحاضر في مدينة (اراك) وبهذه الطريقة يشهد الناس جميع وقائع مأساة كربلاء تمر أمام أعينهم وكأنها شريط صور متحركة ، ولتحقيق هذه الغاية يقوم بالدور الواحد عدة أشخاص في أماكن مختلفة ويمثل كل منهم دوره عدة مرات فلا ينتهي من تمثيله في منطقة حتى يعيد تمثيله من جديد في المنطقة التي تليها ، وهو مجهود شاق يتطلب من القائمين به دربة طويلة ، ولا يجد الممثل فرصة يشهد فيها أثر انفعال مشاهديه بأدائه لدوره لأنه لا يبقى أمامهم أكثر من لحظة ينتقل بعدها الى غيرهم وهكذا دواليك حتى آخر الموكب .

وقل من الممثلين من يقبل بدور (مخالف خوان) لأن القائم بهذا الدور البغيض كثيراً ما يتعرض لخطر عدوان الجمهور الواقع تحت تأثير الانفعال الشديد بمشهد المأساة ، فيضطر الى الفرار لينجو بنفسه وقد يلقى مصرعه .

ويقال ان أحسن فرقة لممثلي هذه المسرحية السيارة كانت فرقة (حاجي محمد رضا) .

وجدير بالذكر هنا الإشارة الى تلك المسرحيات المذهبية التي كانت تقام في القرون الوسطى عند المسيحيين الاوروبيين وتأخذ **موضوعها من قصة السيد المسيح والأنبياء** والقديسين **ومثلث فصولهم** أول الأمر بالكنائس وأبهائها وانتقل مسرحها بعد ذلك الى الميادين والمقابر ثم الأبنية المسقوفة التي أعدت لتمثيلها آخر الأمر لتقي الناس تقلبات الجو . وكانت الطوائف المختلفة في انجلترا مثلاً تشترك في هذه المسرحيات فتعد كل طائفة منها عربة على نفقتها تجهزها بالأدوات المسرحية وتمثل فوقها أحد المشاهد وتمر بهذه العربات متتابعة أمام حاكم المدينة ، ويذكرنا ذلك بتلك العربات (الكارو) التي كانت تسير في موكب الاحتفال برؤيا هلال رمضان وعلى كل منها طائفة من أرباب الحرف تقوم بدور يمثل حرفتها ، وقد أشرنا الى هذه المسرحيات المذهبية الاوروبية لأنها لا تخلو من وجه شبه بالتعزية المسرحية في ايران[١٤] .

تاريخ ظهور التعزية في ايران

تاريخ ظهور التعزية على هذه الصورة في ايران غير معروف على وجه محقق ، يرجع به فريق الى أيام البويهيين ، كما يتأخر به فريق آخر الى أيام الصفويين ، ولعل أصحاب الرأي الأول اعتمدوا فيه على ما ذكر في حوادث عام ٣٥٢هـ /(٩٦٣م) بتاريخ ابن الأثير حيث قال : (في هذه السنة عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا «قبابا» عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منتشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما . ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم) .

وجاء بالحاشية ما يفيد بأن هذا أول يوم نيح فيه على الحسين في بغداد[١٥] .

وقد مر بنا في هذا البحث بأن أقدم تعزية هي التي قام بها التوابون على قبر الحسين بكربلاء عام ٦٥هـ/٦٨٤م على رواية ابن الأثير .

وواضح غاية الوضوح انه ليس في كلا الروايتين ما يمكن الاعتماد عليه في معرفة تاريخ ظهور التعزية على هذه الصورة في ايران .

وقد يكون السند الوحيد لأصحاب الرأي الثاني في حدسهم هو اتخاذ الصفويين المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً للدولة ، ولكن ليس لدينا حتى ساعة كتابة هذا البحث رواية تاريخية موثقة تؤيد هذا الحدس .

القصة في الأدب الفارسي ٣٦٩/٣٨٢

(١) دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية ص ٣١٣ . (٢) المصدر السابق ، كتب المقال : شترتمان R. Strothmann (٣) الإلياذة . (٤) سفر التكوين في الإصحاح الثاني والعشرون . (٥) الآيات من ١٥١ إلى ١٥٧ . (٦) تنطق «خان» . (٧) برون جـ ٤ الترجمة الفارسية لرشيد ياسمي ص ١٦١ . الطبعة الثانية وقد نشرت في طهران تحت عنوان (تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفوية تازمان حاضر) سنة ١٣٢٩ هـ .ش . (١٩٥٠ م ١٣٧٠ هـ) . (٨) من مشاهدات الكاتب في إيران (وهذه من المشاهد المألوفة قبل الثورة الإسلامية أما الآن فلا وجود لها في غالب المناطق - الموسم -) . (٩) مجلة نمايش . العدد الخامس ، فروردين ماه سنة ١٣٣٦ هـ . ش (١٩٥٧ م . - ١٣٧٧ هـ) (١٠) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية . مقال شترتمان R. Strothmann (١١) رجعت في تحديد مفاهيم هذه الأسماء وسائر التسميات المتعلقة بالتعزية إلى الأستاذ محمد صادق نشأت . (١٢) دائرة المعارف الإسلامية . (١٣) المصدر السابق (١٤) استقيت معلوماتي عن التعزية المسرحية بصفة عامة من مقال الدكتور (أمير حسين جهانبكلو) عن المسرحية المذهبية المنشور بمجلة (نمايش) العدد الخامس (فروردين ماه) سنة ١٣٣٦ هـ . ش . (١٩٥٧ م . - ١٣٧٧ هـ) وبعض مقتطفات من دائرة المعارف الإسلامية (تعزيه) وأستاذي محمد صادق نشأت . (١٥) المجلد السابع طبعة سنة ١٣٥٣ هـ . - ١٩٣٤ م تصحيح الشيخ عبد الوهاب النجار . القاهرة .

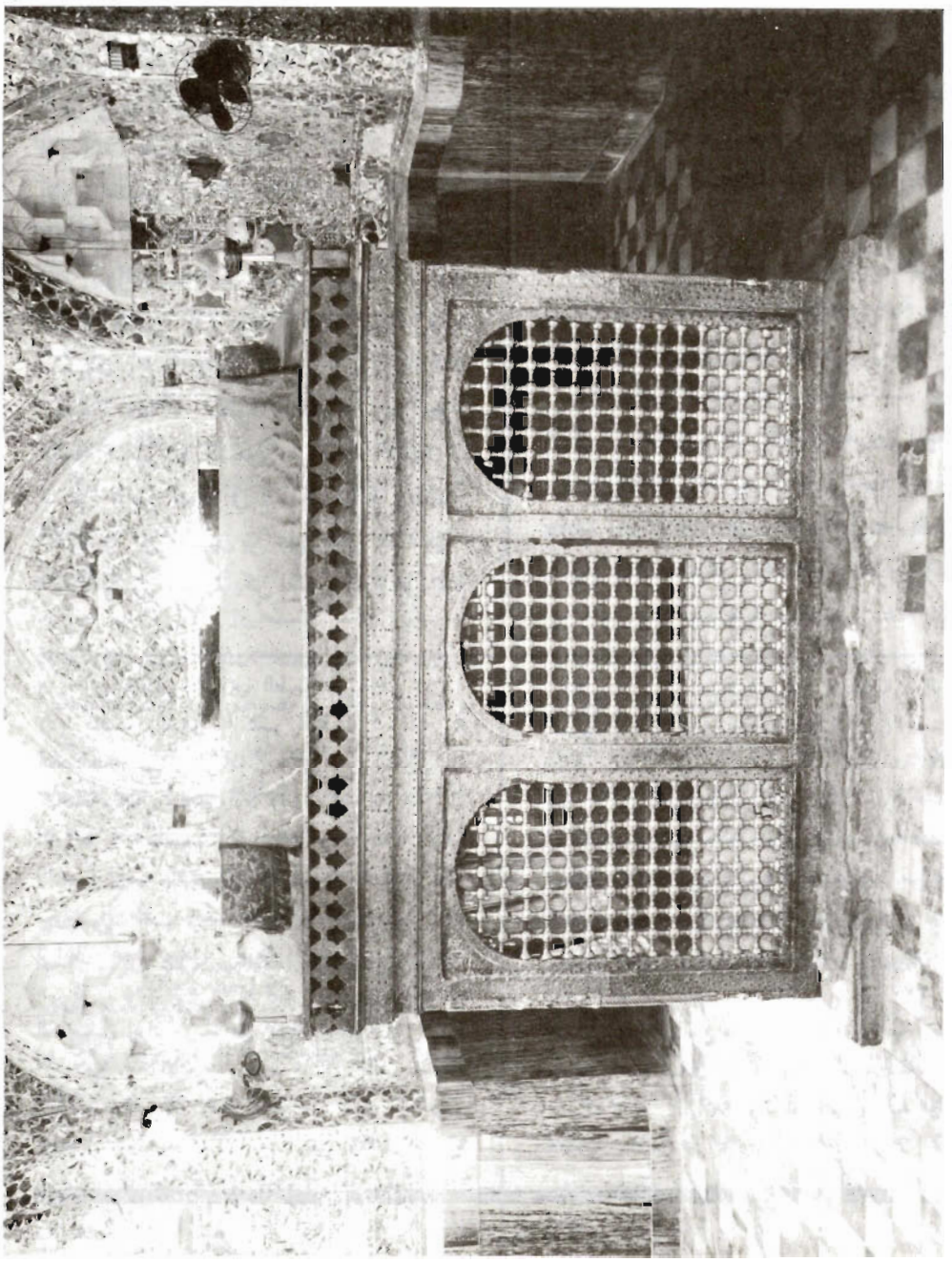

● مشهد سفير الحسين (ع) الشهيد مسلم بن عقيل (الكوفة ـ العراق)